أخبار العلماء بأخبار الحكماء

من الكتب الجديدة في التراجم هذا الكتاب للوزير جمال الدين أبي الحسن علي القفطي من أهل القرن السابع طبع أولاً في ليبسك وأعيد طبعه في القاهرة فتناولته الأيدي وهو الأشبه منه بما تم من قبل بكتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء[1] لموفق الدين أبي العباس أحمد المعروف بابن أبي أصيبعة من أهل ذلك القرن إلا أن كتاب أخبار الحكماء مال فيه صاحبه إلى الاختصار حتى جاء في نحو نصف طبقات الأطباء وإن كان زاد عليه بضع تراجم لأن التراجم في كلا السفرين المعينين تجاوزوا الأربعمائة

سرد ابن القفطي الحكماء تراجمه في حروف المعجم بحسب تقادم عهدهم بخلاف ابن أبي أصيبعة الذي أورد التراجم بحسب الأقطار وبحسب وفياتهم ولم يتبع الأول الكلام إلا في من الأطباء وربما وهم في الأخبار وهماً لا يكاد يقع فيه ابن أبي أصيبعة إلا نادراً والغالب أن هذا وقف في جملة ما وقف عليه من الكتب كتاب القفطي فاستعان به وزاد عليه لأن هذا توفي سنة ٦٤٦ في حلب وابن أبي أصيبعة توفي سنة ٦٦٨ في صرخد من بلاد الشام ولا يعقل أن يكون بين الاثنين تنافس بل لا يطلع أحدهما على ما يكتبه الآخر فقد ترى بعض التراجم بالحرف الواحد في الكتابين ولعل المصادر التي أخذ عنها المؤلفان كانت واحدة فجاءت بعض تراجم كتبهم بعبارة واحدة

ومع أن ابن القفطي اشتهر بأنه من كبار جماعة الكتب[2] وهو وزير وزارة واسعة وفي منصب الوزارة نرى أن ابن أبي أصيبعة وهو من طبقة الأطباء في عصره يهدي كتابه إلى أحد وزراء دمشق ومع هذا نراه يتسع لمادة المنحطة ولكن الخاطر قد يفوق المتقدم ولا عبرة بتقادم الميلاد ولا الأعصر بتطاول الآباد إذا كان الترقي ديدنها

وهذا الإبانة بإيراد طرف من ترجمة صاحب أخبار الحكماء زيادة في البيان فهو علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد بن موسى وزير حلب القاضي الأكرم[3] الوزير جمال الدين أبو الحسن بن القفطي أحد الكتاب المشهورين وكان أبوه القاضي الأشرف كاتباً أيضاً وقد تقلد من المناصب الأولى بالديار المصرية والعلم بحلب كان يقوم بعلوم من اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والنجوم والهندسة

---

(١) المقتبس م ٣ ص ١٧٢ (٢) المقتبس م ٢ ص ٥٦٩ (٣) فوات الوفيات

والتاريخ والجرح والتعديل ولد سنة ستين وخمسمائة وتوفي سنة ست واربعين وستمائة وكان صدراً محتشماً كامل السؤدد وجمع من الكتب ما لا يوصف وقصد بها من الآفاق وكان لا يحب من الدنيا سواها ولم يكن له دار ولا زوجة واوصى بكتبه للناصر صاحب حلب وكانت تساوي خمسين الف دينار وله حكايات غريبة في غرامه بالكتب وهو اخو المؤيد ابن القفطي ومن شعره

ضدان عندي قصرا همتي   وجه حيي ولسان وقاح
ان رمت امراً خانني ذو الحيا   ومقول يطمعني في النجاح
فانثني من حيرة منهما   لي مخلب ماض ومالي جناح
شبه جبان فر من معرك   خوفاً وفي يمناه عضب الكفاح

وله من التصانيف كتاب الضاد والظاء وهو ما اشتبه في اللفظ واختلف في المعنى والخط . كتاب الدر الثمين في اخبار المتيمين . كتاب من ألوت الايام عليه فرفعته ثم ألوت عليه فوضعته . كتاب اخبار المصنفين وما صنفوه . كتاب اخبار النحويين كبير كتاب اخبار مصر من ابتدائها الى ايام صلاح الدين ست مجلدات كتاب اخبار المغرب كتاب تاريخ اليمن كتاب الحلى في استيعاب وجوه كلا . كتاب اصلاح خلل صحاح الجوهري كتاب الكلام على الموطا لم يتم كتاب الكلام على صحيح البخاري لم يتم تاريخ محمود بن سبكتكين وبقية كتاب تاريخ السلجوقية كتاب الاستئناس في اخبار آل مرداس كتاب الرد على النصارى وذكر مجامعهم كتاب مشيخة تاج الدين الكندي كتاب نهزة الخاطر ونزهة الناظر في احاسن من ظهور الكتب اه .

ولما توخى ابن القفطي من الاختصار في التراجم تسقط فيه على امور كثيرة وفوائد غزيرة خصوصاً وان من الرجال من ترجمهم هو وحده ومنهم من تفرد بهم ابن ابي أصيبعة ومنهم وهم الاكثر من اشتركا معاً في ترجمتهما مثل الذي نقله عن الخطيب امين الدولة ابوالحسن علي الابن العثماني الاموي القفطي صاحب القاضي الاكرم قال : « وكان من اجمل من رأيت نباهة وفضلا وبلاغة ومشاركة قال ادركت جلة المشايخ من اجلاء بلادنا وهم مجمعون على ان الذي اردم اراضي اكثر قرى مصر واسس الجسورة المتوصل بها من قرية الى قرية في زمن النيل هو ارشميدس فعل ذلك لبعض ملوكها وسببه ان اكثر القرى بمصر كان اهلها اذا جاء النيل تركوها وصعدوا الى الجبال المقابلة لها فاقاموا بها

الى ان يذهب النيل خوفاً من الغرق فاذا اخذ النيل في النقص نزل كل قوم الى اراضيهم وشرعوا في الزرع فكان ما تطامن من الارض يعمه ما يحبس فيه من الماء عن الوصول الى ما علا فلا يصل اليه الا بعد جفافه فلا يمكن زرعه فيذهب بذلك فضل كثير ولما علم ارشميدس بذلك في زمنه قاس اراضي اكثر القرى التي على ما يكون من النيل وارده ورسمها وبنى عليها القرى وعمل الجسورة ما بين الرساتيق وفي اوساط الجسورة قناطر ينفذ الماء منها من ارض قرية الى اخرى فزرع كل واحد منهم الزرع في وقته من غير فوات ووقف من [illegible] ارضاً معينة يصرف مغلها في كل سنة الى اصلاح هذه الجسورة فهي الى الآن معلومة ولها ديوان مفرد بمصر يعرف بديوان مدن الجسورة وعليها احتراز كثير وعناية كبيرة واعرف وانا طفل وقد اضيفت هذه الجهة بالاعمال الشرقية من جوف مصر الى والدي رحمه الله نظراً وله نواب وضمان ومشدون وكان العمل فيها اتعب من جميع الاعمال اه»

ومثل قوله في ترجمة جالينوس الحكيم ان انطونيوس قيصر ملك اثنتي عشرة سنة وبنى مدينة ايليوبوليس وهي مدينة بعلبك اي اصلحها وقد قال في ترجمة سنان بن ثابت بن قرة الحراني ما نصه: «وكانت منزلة سنان كبيرة عند الامراء والوزراء فمن ذلك ان الوزير علي بن عيسى بن الجراح وقع اليه في سنة كثرت فيها الامراض والاوباء توقيعاً نسخته: فكرت مد الله في عمرك في امر من في الحبوس وانهم لا يخلون مع كثرة عددهم وجفاء اماكنهم ان تنالهم الامراض وهم معوقون من التصرف في منافعهم ولقاء من يشاورونه من الاطباء في امراضهم فينبغي اكرمك الله ان تفرد لهم اطباء يدخلون اليهم في كل يوم ويحملون معهم الادوية والاشربة وما يحتاجون اليه من المزورات وتتقدم اليهم بان يدخلوا سائر الحبوس ويعالجوا من فيها من المرضى ويريحوا عللهم فيما يصفونه لهم ان شاء الله تعالى. ففعل سنان ذلك ثم وقع اليه توقيعاً آخر: فكرت فيمن بالسواد من اهله وانه لا يخلو من ان يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الاطباء فتقدم مد الله في عمرك بانفاذ متطببين وخزانة من الادوية والاشربة يطوفون في السواد ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة الى مقامهم ويعالجون من فيه ثم ينتقلون الى غيره. ففعل سنان ذلك وانتهى اصحابه الى سورا والغالب على اهلها اليهود فكتب سنان الى الوزير علي بن عيسى يعرفه ورود كتب اصحابه عليه من السواد بان اكثر من بسورا ونهر ملك يهود وانهم استأذنوا في المقام عليهم وعلاجهم

الى الانصراف عنهم الى غيرهم وانه لا يطرقها مجيء بعد ذلك الا يعرض رأيه في اهل الذمة وعلمه ان الرسم في بيمارستان الحضرة قد جرى للملي والذمي · فوقع الوزير توقيعاً نسخته: فهمت ما كتبت به اكرمك الله وليس بيننا خلاف في ان معالجة اهل الذمة والبهائم صواب ولكن الذي يجب تقديمه والعمل به معالجة الناس قبل البهائم والمسلمين قبل اهل الذمة فاذا فضل عن المسلمين ما لا يحتاجون اليه صرف في الطبقة التي بعدهم فاعمل اكرمك الله على ذلك واكتب الى اصحابك به ووصهم بالتنقل في القرى والمواضع التي فيها الاوباء الكثيرة والامراض الفاشية وان لم يجدوا بذرقة توقفوا عن المسير حتى يصح لهم الطريق ويصلح السبيل فانهم اذا فعلوا هذا وفقوا ان شاء الله تعالى اه»

وفي هذه الرسائل الثلاث نموذج مهم من الكتابة الرسمية في اوائل مدة العباسيين ودليل على ما بلغته الحضارة في عهدهم ايام كان الطب من جملة ما يعنى به حتى ان سنان ابن ثابت احصى الاطباء في بغداد ولم يرخص لاحد ان يطب الا اذا اخذ شهادة بكفاءته وكذلك فعلوا في الصيادلة حتى لا تؤتى الامة من جهة طب ابدانها كما حاذر الخلفاء ان لا تؤتى من قبل اديانها ·

وكما نجد الحاصل [illegible] في اخبار الحكماء نرى السلاوي كذلك كالذي ذكره في ترجمة عبد السلام بن عبد القادر الجيلي المعروف بالركن قال: «كان عبد السلام هذا قد قرأ علوم الاوائل واجادها واقتنى كتباً كثيرة في هذا النوع واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة وتقدم في الدولة الامامية الناصرية وحصل له بتقدمه حسد من ارباب الشر فنسبه اعداؤه الى التعطيل وانه يميل الى اقوال اهل الفلسفة في قواعد هذا الشأن فاوقعت الحيطة عليه وعلى كتبه فوجد فيها الكثير من علوم النجوم وبرزت الاوامر الناصرية باخراجها الى موضع بجنب الرحبة وان تحرق بحضور الجمع الجم منها ففعل ذلك واحضر لها عبيد الله التيمي البكري المعروف بابن المارستانية وعمل له منبر صعد عليه وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم وذكر الركن عبد السلام هذا بشر وكان يخرج الكتب التي له كتاباً كتاباً فيتكلم عليه ويبالغ في ذمه وذم مصنفه ثم يلقيه لمن بيده ان يلقيه في النار اه»

ومما فيه من الغرابة في ترجمة موسى بن ميمون الاسرائيلي الاندلسي لما نادى عبد المؤمن بن علي الكومي البربري المستولي على المغرب في البلاد التي ملكها باخراج النصارى منها وقدر لهم مدة وشرط ان من اسلم منهم بموضعه في اسباب رزقه ما للمسلمين وعليه ما

عليهم ومن في يدي وأنا أهل ملة فلا أخرج قبل الأجل الذي أجله [illegible] يكون بعد الأجل في حكم المقتل [illegible] متهلك النفس والمال .

ومما ذكره وهو مما يدل على اتساع ثروة العرب (١) [illegible] بنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن من أن محمداً [illegible] من وجوه القواد [illegible] الأتراك في الدولة وذهبت دولة [illegible] وانتهت إلى الأتراك [illegible] مدخوله في كل سنة بالحضرة [illegible] نحو اربعمائة الف دينار ومدخول احمد أخيه نحو سبعين الف دينار . فأين مبلغ هذه الثروة

ومما نقتبسه من هذا الكتاب أنموذجاً لدرجة الحضارة في القرن الخامس ما نقله من كتاب كتبه المختار بن الحسن بن عبدون الحكيم الطبيب البغدادي المعروف بابن بطلان من مصر [illegible] كرخ بغداد إلى الرئيس هلال بن المحسن بن إبراهيم [illegible] بسم الله الرحمن الرحيم . أنا لما اعتقده من خدمة سيدنا السيد الأجل أطال الله بقاءه وكبت أعداءه ديناً وقضياً واقترضه من طاعته حتماً وفرضاً أصبحت عند وداعي حضرته العالية وقد ودعت منها الفضل والسؤدد والمجد والفخر أجتهد أن أقرب إليها وأجدد ذكرى عندها بالمطالعة بما استطرفه من أخبار البلاد التي أطرقها وأستغربه من غرائب الأصقاع التي أدخلها خدمة للكتاب الذي هو تاريخ المحاسن والفضائل وديوان المعالي والمآثر ليودعه أدام الله تمكينه منها ما يراه ويلحق ما يستوفقه ويرضاه ولم أذكره فما رأيت أحداً بمصر وبهذه الأعمال أكثر من الراغب فيه وكل رئيس في هذه الديار متوق إليه متشوف لوصوله متوقع ولو حصلت منه نسخة إلى ثلاثة آلاف لأمنت في ربحها ونفعها والله تعالى الراغب في نشر فضيلته الظاهرة ومحاسنه الباهرة بجوده . وكنت خرجت من بغداد وبدأت بذكر ما شاهدته من البلاد وخواصها [illegible] من آثارها وعجائبها تذكر لي [illegible] مستطرفه وعجائب [illegible] من الشعر رائقة ولضيق الوقت وسرعة الرسول [illegible] أكثره واقتصرت على [illegible] وكنت خرجت على اسم الله تعالى وبركته مستهل شهر رمضان سنة أربعين وأربعمائة [illegible] ثم عبرت إلى الأنبار ووصلت إلى الرحبة بعد تسع عشرة رحلة [illegible] من النواحي [illegible] الأعناب وهي متوسطة بين الأنبار وحلب وتكريت والموصل [illegible] والجزيرة [illegible] قصر الرصافة مسيرة أربعة أيام ورحلة

---

(١) المقتبس ج ٢ ص ١٥٣

من الرصافة الى حلب في اربع رحلات وهي بلد مسور بالحجر الابيض فيه ستة ابواب وفي جانب السور قلعة في اعلاها مسجد وكنيستان وفي احداهما كان المذبح الذي كان يقرب عليه ابراهيم عليه السلام وفي اسفل القلعة مغارة كان يخبأ فيها غنمه واذا حلبها اضاف بلبنها الناس فكانوا يقولون حلب ام لا ويسأل بعضهم بعضا عن ذلك فسميت حلب وفي البلد جامع وست بيع وبيمارستان صغير والفقهاء يفتون على مذهب الامامية وشرب اهل البلد من صهاريج وعلى بابه نهر يعرف بقويق يمد في الشتاء وينضب في الصيف وفي وسط البلد دار علوة صاحبة البحتري وهو قليل الفاكهة والبقول والنبيذ الا ما يأتيه من الروم (الاناضول) وما بحلب موضع خراب ومنه خرجنا من حلب طالبين انطاكية وبين حلب وبينها يوم وليلة فبتنا في بلدة للروم تعرف بعم فيها عين جارية يصاد منها السمك ويدور عليها رحا وفيها من الخنازير والنساء العواهر والزنا والخمور امر عظيم وفيها اربع كنائس وجامع يؤذن فيه سرا والمسافة التي بين حلب وانطاكية ارض ما فيها خراب اصلا الا ارض تزرع الحنطة والشعير بجنب شجر الزيتون وقراها متصلة ورياضها مزهرة ومياهها متفجرة وانطاكية بلد عظيم ذو سور وفصيل ولسوره ثلثمائة وستون برجا يطوف عليها بالنوبة اربعة آلاف حارس ينفذون من القسطنطينية من حضرة الملك يضمنون حراسة البلد سنة ويستبدل بهم في الثانية وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل والسور يصعد مع الجبل الى قلته ويتم دائرة وفي رأس الجبل داخل السور قلعة تبين لبعدها من البلد صغيرة وهذا الجبل يستر عنها الشمس فلا تطلع عليها الا في الساعة الثانية وللسور المحيط بها دون الجبل خمسة ابواب وفي وسطها قلاية القسياني وكانت دار قسيان الملك الذي احيا ولده بطرس رئيس الحواريين وهو هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على اساطين ودائر الهيكل اروقة يجلس فيها القضاة للحكومة ومعلمو النحو واللغة وعلى احد ابواب هذه الكنيسة فنجان الساعات يعمل ليلاً ونهاراً دائماً اثنتي عشرة ساعة وهو من عجائب الدنيا وفي اعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات وبساتين ومقاصير حسنة وتخر منها المياه وهناك من الكنائس ما لا يحد كثرة كلها معمولة بالفص المذهب والزجاج الملون والبلاط المجزع وفي البلد بيمارستان يراعي البطريك المرضى فيه بنفسه وفي المدينة من الحمامات ما لا يوجد مثله في مدينة من اللذاذة والطيبة لان وقودها من الآس وماؤها سيح وفي ظاهر البلد

نهر يعرف بالمقلوب يأخذ من الجنوب الى الشمال وهو مثل نهر عيسى وخارج البلد دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة يضاف فيه المجتازون يقال ان دخله في السنة اربعمائة الف دينار ومنه يصعد الى جبل اللكام وفي هذا الجبل من الديارات والصوامع والبساتين والمياه المتفجرة والانهار الجارية والزهاد والسياح وضرب النواقيس في الاسحار والالحان الصلوات ما يتصور معه الانسان انه في الجنة . وفي انطاكية شيخ يعرف بابي نصر بن العطار قاضي القضاة بها له يد في العلوم مليح الحديث والالفاظ . وخرجت من انطاكية الى اللاذقية وهي مدينة يونانية ولها ميناء وملعب وميدان للخيل مدور وبها بيت كان للاصنام وهو اليوم كنيسة وكان في اول الاسلام مسجداً وهي راكبة البحر وفيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه واذان في اوقات الصلوات الخمس وعادة الروم اذا سمعوا الاذان ان يضربوا الناقوس وقاضي المسلمين الذي بها من قبل الروم . ومن عجائب هذا البلد ان المحتسب يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم في حلقة وينادي على كل واحدة منهن ويتزايد الفسقة فيهن لليلتها تلك ويؤخذن الى الفنادق التي هي الخانات لسكنى الغرباء بعد ان تأخذ كل واحدة منهن خاتماً هو خاتم المطران حجة بيدها من تعقب الوالي لها فانه متى وجد خاطئاً مع خاطئة بغير ختم المطران الزمه جناية . وفي البلد من الحكماء والزهاد في الصوامع والجبال كل فاضل يضيق الوقت عن ذكر احوالهم والالفاظ الصادرة عن صفاء عقولهم واذهانهم اه .

وبعد فان تاريخ القفطي من الكتب التي اجاد فيها مصنفها حري بان يستفيد منه كل متأدب ومتعلم ويرجع اليه كل عالم ومؤرخ سلس العبارة جميل الاسلوب ينقل الامور عَلَى علاتها في الاكثر بدون تمحيص لها او ابداء رأي فيها كابن ابي أصيبعة بقوله في رد كل قول الى قائله وضبط الاعلام والتدقيق في التواريخ واخبار الرجال وذكر شذور من شعرهم ونثرهم والكتاب كحب رمان او كالسلسلة المفرغة لا تدري اين طرفاها